أهمية ميناء إيول قيصرية (شرشال الحالية)

أ.د. الزهرة زعبي
قسم التاريخ، جامعة الجزائر

مقدمة

إشتهر البحر المتوسط في العصر القديم بتعدد موانئه التي كانت تعد قاعدة لإمبراطوريات بحرية، وكثرتها تتجلى من خلال المسافة القصيرة التي تفصل كل ميناء عن الآخر، بحيث لا تتجاوز مسيرة يوم واحد، وبما أن الجزائر هي إحدى البلدان المطلة على هذا البحر، فهي تتميز بتعدد موانئها التي كانت لها شهرة كبيرة بين شعوب العالم القديم.

ومن المعروف أن الموانئ هي أحد جوانب الإرث الإنساني الذي تناولته الكتابات التاريخية بإسهاب، بالإضافة إلى كونه مجال دراسة من قبل إختصاصات أخرى، لأن وجود الموانئ يكشف لنا عن مدى إهتمام الإنسان القديم بالبحر وإستغلاله كوسيلة إتصال بمناطق أبعد. فهي صورة تعكس لنا تفاصيل كثيرة عن ذلك العصر، كالعلاقات السلمية والحربية بين الشعوب.

ومع ذلك فإنني أجد الأبحاث الأكاديمية مقصرة في دراستها، وفي أحيان كثيرة تركز على بعض الموانئ التي ظلت بقاياها بادية للعيان أو تردد ذكرها في المصادر الأدبية، لذلك جاءت هذه الدراسة كمساهمة في إثراء هذا النوع من الدراسات.

دوافع إختيار الموضوع

إجتمعت لدي جملة من الدوافع جعلتني أختار ميناء إيول – قيصرية أوجزها في مايلي :

- تواصل وجود ميناء إيول- قيصرية منذ عصر ما قبل التاريخ إلى الوقت الحالي.
- تزامن تواجده في العصر القديم مع موانئ تعد من أشهر الموانئ القديمة، والتي كانت قاعدة لإمبراطوريات بحرية، كميناء قرطاج، فاروس بالإسكندرية، والميناء الروماني أوستي.
- إرتقائه في فترات محددة خلال العصر القديم ليصبح ميناء عاصمة.
- لم تعط الدراسات المتخصصة لميناء إيول – قيصرية العناية الكافية مقارنة بوزنه التاريخي، وبالتالي فإنه لم يدرس دراسة جدية من قبل المختصين سواء كانوا أثريين أو مؤرخين، وكل الذين تناولوه أشاروا إليه بشكل مختصر في إطار دراسة شاملة.
- عرف ميناء إيول – قيصرية خلال الفترة الممتدة من أربعينيات القرن التاسع عشر إلى غاية الستينيات من القرن العشرين أبحاث ميدانية وتنقيبات أثرية على اليابسة أو تحت الماء، سواء من قبل مختصين أو غير مختصين، غير أن هذه التنقيبات توقفت ولم يستغل الكثير مما كشف عنه في الكتابات التاريخية.
- لمست خطورة تآكل سواحل أفريقيا الشمالية نتيجة للحت البحري وما ينجم عنه من إتلاف للآثار الساحلية وهي الحالة التي تعانيها شواطئ ميناء إيول- قيصرية مع الجُزيْرات المتواجدة فيه، فهذه

الظاهرة تشكل تهديدا يعمل على إخفاء بقايا ماضي قد يمدنا بمعلومات وإجابات عن إستفسارات كان ولا يزال ميدان البحث بحاجة إليها.

أهداف الدراسة

- إبراز أهمية ميناء إيول – قيصرية خلال العصر القديم.
- إمكانية تصنيفه ضمن الموانئ العالمية في ذلك العصر.
- التحسيس بخطورة إندثار جزء من معالمه القديمة في الفترة الإستعمارية أثناء إنشاء الميناء الحديث، وما لحق بما تبقى منه في الوقت الحالي من إهمال.
- التأكيد على أن لإيول – قيصرية مجموعة من الموانئ وليس ميناء واحد.
- لفت إنتباه الهيآت المعنية بأنه حان الوقت للإهتمام بهذا النوع من الدراسات، وضرورة إجراء تنقيبات أثرية تحت الماء، على غرار ما يحدث من أبحاث في مناطق مختلفة من العالم، والإستفادة من الخبرات العالمية في هذا المجال والتعاون مع مراكز الأبحاث الدولية.
- إعادة ترميم أجزاء من الميناء وجعله معلما تاريخيا وسياحيا يذكر الجميع بقيمته وعظمته التاريخية لأنني أعتبره بحق ميناء عاصمة الدولة الجزائرية في العصر القديم.

المصادر التي تناولت ميناء إيول- قيصرية :

- ذكرت رحلة حانون القرطاجي التي قام بها في القرن الخامس ق.م عديد المواقع الساحلية المتواجدة في شمال القارة الأفريقية ومنها إيول- قيصرية، ولو أنه لم يذكر تفاصيل عن مينائها إلا أن ذلك يعد دليلا كافيا على وجوده في ذلك العصر.
- تؤكد رحلة سيلاكس Scylax التي حدثت حوالي 350 ق.م على العلاقات التجارية التي كانت تربط قرطاج بإيول- قيصرية إبتداء من القرن الرابع ق.م، ونحن نعلم بأن تلك العلاقات تتم عبر البحر بوجود ميناء.
- أشار پوليب Polybe الذي عاش بين 210 و122 ق.م والذي قاد رحلة حول أفريقيا إلى وجود مراكز هامة في بلاد نوميديا وموريطانيا بما فيها إيول، لكن الجزء الخاص بهذه المعلومات ضاع ووصلنا بعض منه عن طريق من جاؤوا بعده ومنهم على وجه الخصوص بلين الكبير Pline l'ancien في الكتاب الخامس من موسوعة : "التاريخ الطبيعي".
- ذكر ديودور الصقلي Diodore de Sicile في كتابه : "المكتبة التاريخية" معلومات تتعلق خصوصا بالعلاقات التي كانت سائدة بين كل من مدينة قرطاج وموقع إيول، ولو أنه لم يذكر الميناء بصورة واضحة إلا أن ما قاله يدل على أهميته وقيمته آنذاك، خصوصا وأن الإتصالات بين قرطاج ومناطق البحر المتوسط

كانت في الأساس تتم عبر البحر، وهذا يفترض وجود ميناء قادر على إحتواء السفن بمختلف أنواعها وأحجامها.

- أما الجغرافي سترابون Strabon فقد ذكر الميناء بصريح العبارة وبإختصار، جاء فيها بأن مدينة إيول- قيصرية كان لها ميناء وتقابله جزيرة صغيرة.
- بدوره دوّن بطليموس Ptolémeé حوالي ثلاثين مركزا ومدينة ساحلية على الشاطئ الموريطاني ومن بينها بالطبع موقع إيول- قيصرية، وتكلم هو أيضا عن الجزيرة المقابلة للميناء والتي ذكرها بإسم : Psamathos.
- من جهته قدم المؤرخ الروماني ديون كاسيوس Dion Cassius في مؤلفة التاريخ الروماني Histoire romaine معلومات مهمة عن التاريخ السياسي لموريطانيا منذ فترة حكم الملك بوكوس الثاني إلى غاية مقتل بطليموس وهي معلومات تفيد ولو بشكل غير مباشر في إعطاء صورة عن مدينة إيول- قيصرية في ذلك العصر وبالطبع مكانة مينائها من خلال تلك الأحداث وخاصة دوره الدفاعي.
- بالرجوع إلى مصادر العصر الوسيط نجد بعض الرحالة العرب قد أشاروا إلى ميناء إيول- قيصرية، فمثلا إبن حوقل الذي عاش في القرن العاشر تكلم عن آثار مدينة شرشال بما فيها الميناء، إذ ذكره بكلمة مرسى بمعنى أن الميناء في عهده لا يزال مستغلا.
- مئة سنة من بعده نجد الجغرافي البكري يقول عنها في كتابه "وصف أفريقيا " بأن مدينة شرشال هي مدينة مهجورة وأن مينائها مغمور تحت المياه.

الدراسات الحديثة والتنقيبات الأثرية

بدأ الإهتمام بميناء إيول- قيصرية خلال القرن 18 بفضل عمل الرحالة الإنجليزي شاو D^R Shaw الذي طاف بلاد المغرب خلال النصف الأول من هذا القرن ودوّن مشاهداته في كتابه الذي نشر سنة 1738 وترجم إلى الفرنسية بعنوان : Voyages dans la régence d'Alger سنة 1830، تكلم فيه عن آثار شرشال القديمة بما فيها الميناء الذي ذكر جزء منه بإسم قاطون Cothon والجزيرة المنتصبة عند مدخل الميناء، وقال بأنه يوجد بالمدينة آثار لا تقل كثرة وإمتدادا عن آثار مدينة قرطاج.

قرن فيما بعد وتحديدا سنة 1840 إحتل الفرنسيون مدينة شرشال، وتبدأ فيها مباشرة التنقيبات الحديثة ومن ضمنها أعمال A.Ravoisié، الذي شرع في رفع صور لآثار المدينة القديمة والتي تشكل إلى اليوم مصدرا ثريا بالمعلومات، وتكلم عن الميناء من خلال الجزء الثالث من كتابه الذي يحمل عنوان : Exploration scientifique de l'Algerie dans les années 1840,1841,1842. والذي نشر سنة 1846، ومثلت الصورتان اللّتان تحملان الرقمين : 24 و25 الميناء القديم لهذه المدينة.

ومع بداية القرن العشرين تظهر دراسة جد ّ هامة أنجزها René Cagnat تحمل عنوان : l'Armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs، وضع فيها المخطط الذي

تصوره لميناء إيول- قيصرية في العصر القديم وتحديدا في العهد الروماني بناء على نتائج التنقيبات التي حدثت في المدينة خاصة من قبل A.Ravoisié، والإشارات الواردة من طرف الرحالة "شاو"، حيث وصف Cagnat الميناء ووضع له مخططا وقال بأنه كان مزدوجا : عسكري وتجاري، وتمكن من تحديد عدد وحدات الأسطول التي كانت تتواجد به.

ومن الذين كتبوا عن هذا الميناء وأعطوه أهمية كبيرة المؤرخ المشهور "قزال" S.Gsell في : الأطلس الأثري للجزائر ورقة رقم 04، أعطى تفاصيل جد دقيقة عنه مستفيدا من الأبحاث التي سبقته، خصوصا وأنه كان من الذين عملوا ميدانيا في المنطقة، وقد أفاده ذلك في إنجازاته العديدة، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

Monuments antiques de l'Algerie، والتي أشار فيها لميناء إيول- قيصرية في الجزء الثاني منه.

كما أعطى معلومات وافية عن المدينة بما فيها الميناء في الجزء الثامن من موسوعته التي تحمل عنوان : Histoire ancienne de l'Afrique du Nord، وله أيضا دراسات خاصة بتاريخ مدينة شرشال منها : Cherchel, antique Iol Caesaréa، وهو بذلك يعتبر المؤرخ الرئيس لهذه المدينة، حيث نشر عنها كذلك في سنة 1926 فصلا ضمن عمله : Promenades archéologiques aux environs d'Alger.

من جهته قام le Commandant Quemard في سنة 1931 بإنزال غواصين في الجزء الشرقي من الميناء أسفرت عن وجود بقايا بناءات تحت الماء. وقد قام في هذه الفترة بإنجاز خريطة لشاطئ المدينة جمع فيها دلالات ثمينة، وقد نشر هاته الدراسة في عمل مشترك مع C.F Lacoste حملت عنوان : Les ports antiques d'Algerie. La division navale de Maurétanie. Le port militaire romain de Césarée (Cherchell). Esquisse archéologique et historique d'après les découvertes et sondages les plus récents. ، في : Revue maritime، ديسمبر 1932.

إلى جانب ذلك فإن علم الآثار البحرية لعب دورا في تعريفنا بالميناء في عصوره القديمة حيث قام مجموعة من الغواصين رفقة عالم الآثار Ph. Diolé بإكتشافات تؤكد وجود آثار غارقة في الموقع القديم، وقد سجل ذلك في كتابه : Promenade d'archéologie sous-marine الذي نشره سنة 1952 حيث تكلم في الفصل السابع منه عن ميناء مدينة شرشال التي مكث فيها 8 أيام وهي مدة قصيرة كما أوضح ذلك بنفسه، خاصة وأنه في كثير من الأحيان لم تسمح له حالة البحر بالغوص وبالتالي فهي دراسة غير كافية وموجزة رغم أهميتها.

من التقنيات المهمة والملفتة للإنتباه ما قام به Jean Lassus بين سنتي 1958 و1959 والتي نشرت نتائجها في : Comptes Rendus des Séances de l'Academie des Inscriptions et Belles Lettres سنة 1959 المجلد 103 رقم : 2 بعنوان : Les découvertes récentes de Cherchel

تتعلق خاصة بالميناء والجزيرة المعروفة بإسم جوانفيل Joinville، أكد من خلالها بأن الأثر الأكثر قدما المكتشف في تلك الجزيرة يعود إلى القرن السادس أو الخامس ق.م، والشيء المهم الآخر هو إكتشافه لبقايا المنارة القديمة التي أعطى تفاصيل وافية عنها.

كما قام الإنجليزيان المختصان في الآثار البحرية R.A.York وD.P.Davidson بنشر كتابهما : Roman harbours of Algéria, Maghreb project سنة 1968، وقد ذكرا بدورهما آثارا غارقة للميناء القديم، إلى جانب ذلك إكتشفا ميزة أخرى ميزت هذا الميناء ألا وهي الصيد البحري، حيث عثرا على أحواض لتربية الأسماك وبالقرب منها أحواض لتمليحها.

ومن بين الدراسات التي لا بد من الإشارة إليها أطروحة الدكتوراه التي أنجزها Ph.Leveau : بعنوان : Caesaréa de Maurétanie, une ville romaine et ses campagnes، نشرت من قبل المدرسة الفرنسية بروما سنة 1984، وتعتبر دراسة تاريخية وأثرية على درجة عالية من الأهمية، تدور حول مدينة قيصرية عاصمة موريطانيا القيصرية وما جاورها. تطرقت الدراسة إلى ميناء المدينة والأهمية التي كان يتمتع بها لكن لم تعط تفاصيل كثيرة.

أحدث الدراسات التي إستطعت الإطلاع عليها هي أطروحة دكتوراه تحمل عنوان : Les ports phéniciens et puniques, géomorphologie et infrastructures. قدمت من قبل : Nicolas Carayon،

نوقشت بتاريخ : 17 ماي 2008 بجامعة ستراسبورغ، تناول فيها صاحبها ميناء قيصرية خلال الفترة السابقة للعهد الروماني من جوانب عديدة : الميناء الطبيعي وحوض جزيرة جوانفيل والرصيف وأشياء أخرى كثيرة.

الموقع وأصل التسمية

يبعد ميناء إيول قيصرية حوالي 100 كلم إلى الغرب من الجزائر العاصمة[1]. وقد ساد الإعتقاد لمدة طويلة أن إسم الميناء القديم مأخوذ من إسم إله فينيقي[2]. لكن الدراسات العلمية تؤكد أن إيول تعود إلى الأسماء التي تبدأ بـ : il اللاتينية والتي تعني جزيرة[3]، إذ نجد أن كل المواقع الساحلية للشمال الأفريقي التي تتواجد بقربها جزر تبدأ بحرف : I مثل : إيجيجلي(جيجل الحالية) وإيكوزيوم (الجزائر العاصمة). ولو تعمقنا أكثر في الموضوع سنجد أن أصلها فينيقي وتعني نفس المعنى اللاتيني أي جزيرة.

وإبتداء من عصر الملك يوبا الثاني (25 ق.م – 23 م) أطلق عليها : قيصرية عرفانا لقيصر[4]، وقد ذكر موقعها بهذا الإسم في مجموعة من المصادر الكلاسيكية منها كتابات بلين[5] وسترابون[6]. وذكرت بالإسمين معا أي إيول – قيصرية من قبل الجغرافي بطليموس[7].

أما عن إسمها الحالي شرشال فلا يوجد تفسير مقنع وأكيد، رغم أن بعض الرحالة العرب كانوا قد أرجعوا إسمها إلى المهندس Shenschar الذي بنى جدارا شُبه بسور مدينة شرشال القديم.

لمحة تاريخية حول ميناء إيول- قيصرية

من خلال المكتشافات الأثرية والمصادر الأدبية فإن ميناء إيول- قيصرية مرّ في العصر القديم بمراحل متواصلة.

مرحلة ما قبل التاريخ

إلى غاية اليوم لم يعرف بالتحديد أوّل من أنشأ ميناء إيول- قيصرية، لكن تم الكشف عن وجود مخلفات تعود إلى العصر الحجري القديم، وتحتوي على أدوات موستيرية في مواقع قريبة جدا من الميناء، منها كهوف جبل شنوة. بالإضافة إلى ذلك أُكتشف خنجرا يعود إلى العصر الحجري النحاسي برأس جبل الشنوة المطل على الميناء. هذه الإكتشافات أدت بكل من G.Camps وP.R Giot بتقديم فرضية قيام الشعوب الساكنة بالقرب من البحر في هذه المنطقة بالملاحة منذ ذلك العصر[8]. والتي رأى فيها Ph Leveau أهمية كبيرة لأن الأمر يتعلق مباشرة بالمرحلة التي تسبق مجيء الملاحين الفينيقيين[9]. وإن كانت المسألة بحاجة لدراسة أعمق إلاّ أنها تعتبر دليلا هاما على أن الميناء كان له وجود ودور منذ ذلك الزمن.

المرحلة الفينيقية

ومع ذلك فإنّ الكثير من المؤرخين يرون أن الفينيقيين هم أوّل من أسس ميناء إيول- قيصرية مثل باقي الموانئ الأخرى، والدليل هو إسم الموقع الذي يعود إلى أصل فينيقي، وأيضا ذكره من قبل

المصادر الأدبية على أنّه كان خلال العصر البونيقي ميناء بأتم معنى الكلمة وليس مجرد مخبأ.

أمّا المُكتشفات الأثرية فهي عديدة ومتنوعة منها صنح Cymbale من البرونز أستخرج من تحت الماء أثناء تنقيبات عالم الآثار البحرية Ph.Diolé كُتب عليه كتابات بونيقية تؤرخ بالقرن الثاني ق.م، وقطعة من تابوت ذو صنع فينيقي وجعارين مصرية وفينيقية[10].

وحدد أقدم أثر للفينيقيين بالقرنين السادس والخامس ق.م من خلال ما تم العثور عليه في جزيرة جوانفيل، والذي يؤكد بأنهم إستوطنوا جنوبها أي إستغلوا الحوض المائي الذي يمتد بينها وبين الشاطئ كميناء طبيعي، لكن لم تفصح هذه المكتشفات عن قيام الفينيقيين بتهيئته كبناء الحواجز والأحواض وغيرها، على غرار ما فعلوه في محطات أخرى[11]. ومع ذلك فإنه إحتل المكانة الثانية في ذلك الوقت من حيث الأهمية ودوره في غربي البحر المتوسط بعد ميناء قرطاج.

وقد كشفت التنقيبات التي أجرها G.Vuillemot في الجزيرة أنّ هناك طبقات أقدم من الطبقة التي تعود إلى العصر الهللنستي، والتي حدد تاريخها بالقرن الخامس ق.م. كما أكدت البعثة الجزائرية الانجليزية التي قادها كل منT.W Patter ونصيرة بن صديق سنة 1979، والتي نقبت تحت الساحة العمومية بمدينة شرشال

على وجود طبقات تعود إلى نفس تلك الفترة تثبت أنّ الشريط الساحلي إستوطن من قبل الفينيقيين[12].

والمعروف عن الفنيقيين عند قدومهم إلى بلاد المغرب يقومون بالبحث عن المناطق التي بها خلجان أو التي تتواجد أمامها جزر لأنهم في البداية لم يكونوا يحدثون أية تغييرات على الموقع، وقد جلبهم موقع إيول – قيصرية لأنه يتوفر على شروط الميناء الطبيعي، فجزيرته تعتبر كاسرا للأمواج وتحميه من الرياح الشمالية الشرقية، لكن الأبحاث في الوقت الحالي لم تؤكد فيما إذا كانوا قد بنوا سورا حول الجزيرة[13].

المرحلة النوميدية

كان موقع إيول من ضمن ممتلكات مملكة المازيسيل أثناء حكم الملك سيفاكس Syphax، وبعد إنهزامه سنة 203 ق.م أدمجت مملكته في مملكة الماسيل التي شكلت من قبل ماسينيسا[14].

إرتقت إيول خلال هذه المرحلة إلى مصاف عاصمة في زمن الملوك النومديين منهم ميكيبسا الذي حكم بين 148 و118 ق.م، ثم الملوك المور : بوكوس الثاني الذي أنشأ فيها إقامته، وكان حليفا لقيصر خلال الحرب الأهلية الرومانية، وبعد موته سنة 33 ق.م، وفي ظل عدم وجود وريث له، أخذ أوكتافيوس هذه المملكته [15]. إن إختيار موقع إيول- قيصرية من قبل بوكوس كعاصمة لمملكته

يفسر، من الممكن، بوجود تجمع سكاني مهم بها لأهالي المنطقة المتأثرين كثيرا بالثقافة البونيقية.

كما إتخذها يوبا الثاني عاصمة لمملكته موريطانيا التي ضمت المغرب وثلاثة أرباع الجزائر، وتجمع المصادر على أنه جعلها ميناء كبيرا، وإستمرت كذلك أثناء حكم إبنه بطليموس (23م - 40م)[16].

المرحلة الرومانية

بعد مقتل بطليموس من قبل الإمبراطور كاليقولا Caligula، قسمت موريطانيا إلى مقاطعتين يفصلهما نهر ملوية وهما : موريطانيا الطانجية وموريطانيا القيصرية التي إتخذت مدينة قيصرية عاصمة لها[17]، وبالتالي تواصل دور مينائها في هذه المرحلة إلى غاية نهاية العصر الروماني.

ومنذ العهد الوندالي تمتعت هذه المقاطعة بنوع من الإستقلالية. حيث إكتف الوندال ببعض المراكز الساحلية بما فيها بالطبع ميناء قيصرية. فجنسريق قائد الوندال كان منذ وصوله إلى شمال أفريقيا قد جعله محطة للأسطول الوندالي[18].

كما تواصل وجود هذا الميناء في العصر البيزنطي، لأن البيزنطيين كانوا قد حافظوا على نفس مخطط المدينة بما فيها الميناء. لأنهم كانوا قوة بحرية بالدرجة الأولى، فإلقاء نظرة على الليمس البيزنطي يتضح ذلك، حيث كانت بقايا القلاع البيزنطية منتصبة حول كل ميناء ومنها بالطبع ما وجد حول ميناء قيصرية[19].

ورغم أن الميناء تواصل دوره حتى بعد العصر القديم إلا أن ذلك لم يكن بنفس الأهمية التي كان عليها في السابق، وهو ما نستخلصه من قول ابن حوقل : "... وشرشال مدينة قديمة أزلية قد خربت، وفيها مرسًى وبها آثار قديمة وأصنام من حجارة ومبان عظيمة" [20]. وأرجع الرحالة شاو تحطيم معالم مدينة شرشال بما فيها الميناء إلى زلزال قوي جدا لدرجة أن الميناء أصبح يعج ببقايا المباني[21].

هياكل الميناء

بالنظر للمخطط الذي وضعه R.Cagnat لميناء إيول- قيصرية في العصر القديم (أنظر الشكل رقم : 1)، نلاحظ تقسيمه إلى ميناءين، وكما يقول فإنه اعتمد في ذلك على ما ذكره الرحالة شاو، وبالاستعانة بالمخطط الذي قدمه A.Ravoisié، المتمثل في منظر لميناء شرشال سنة 1840، كما اعتمد على أعمال بعض المهندسين والعسكريين منها مثلا الإكتشافات التي جرت سنة 1841 من قبل Richard قائد مازافران والاكتشافات التي حدثت سنة 1843 من قبل Giret مهندس الجسور، وهي أعمال سمحت له بأن يكوّن صورة عن تهيئة الميناء قديما[22]. وعمله هذا نجده يتردد في كتابات S.Gsell[23] بل في كل دراسة تتعرض لميناء إيلول- قيصرية.

الميناء التجاري : (أنظر الشكل رقم : 1)

حسب المؤرخ Cagnat فإنه يقع في الجزء الشرقي، ويشغل الحيّز الغربي من خليج شرشال، يحدّه من الشرق كاسر الأمواج[24] الذي

ينطلق من رأس المرابطين إلى غاية جزيرة la Balise، كانت بدايته عريضة عند الشاطئ ثم يصبح ضيّقا[25]. وإلى غاية اليوم يمكن رؤية الصخور البارزة من تحت الماء شاهدة عليه كما توضحه الصورة.

حُدِّد مدخله من ناحية الشمال بين نهاية هذا الكاسر وبين طرف كاسر آخر يربط جزيرة جوانفيل بجزيرة موازية لها، وهو معرّض بشكل كبير للرياح الآتية من الشمال[26]، وقدّر Ph.Leveau مساحته بـ 9 هكتارات[27].

يذكر Cagnat أن هذا الميناء يتصل بالميناء العسكري بواسطة مدخل ضيّق قدرّه Ravoisié بـ 10,20 م. أمّا Giret فقدّره في المخطط الذي وضعه بـ 15 م[28].

ورغم كثرة الصخور وحطام المباني فيه لدرجة أن ديولي Diolé لم يستطع تقدير عمقه، إلاّ أن الأبحاث لم تهتم بدراسة هذا الكاسر، وبالتالي لم يعط تاريخا محدّدا له أو العصر الذي يعود إليه[29]، لكن N.Carayon قال بأنّه يعود إلى العصر الروماني، لأنّ الكواسر العمودية la jetée perpendiculaire على الشاطئ لم يثبت وجودها.

شكل رقم 1 : مخطط ميناء إيول- قيصرية

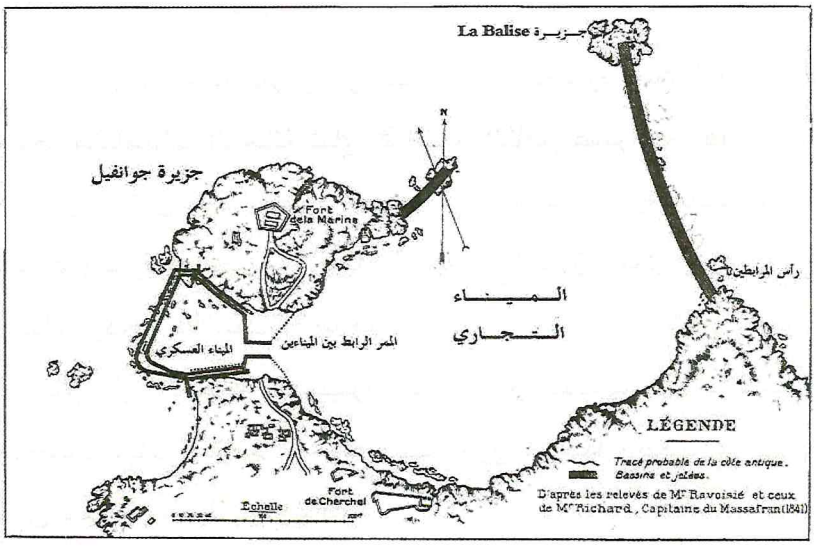

المرجع (بتصرف) : R.Cagnat, l'Armée romaine.

قبل العصر الروماني[30]. ويرجع المؤرخ S.Gsell إنشائه إلى الملك يوبا الثاني[31]. أماّ ديولي فيرى بأنّ جزء من تلك الآثار سابقة للعصر الروماني، ويعتقد أن وفرة الحجارة والأعمدة وحطام المباني خاصة المتواجدة قرب الشاطئ تدل على وجود عمارات كانت قد بُنيت على الشاطئ وعلى ذلك الكاسر.كما لفت إنتباهه كسر أو ممر عند منتصف الكاسر لكن لم يتمكن من تحديد طبيعته، هل هو كسر أُحدث في عصر لاحق أو أنّه عبارة عن ممر أنشئ منذ البداية ويُعد أحد مداخل الميناء، وحسب رأيه فإنّ الفصل في ذلك يكمن في

رفع الأنقاض التي لاحظ عليها نقوشا يمكن أن تمد الباحثين بمعلومات وتجيب عن إستفسارات[32].

إن ما وجده ديولي من بقايا مباني كثيرة تحت الماء يؤكد صحة مشاهدات الرحالة شاو في القرن الثامن عشر حين قال عندما يكون مستوى مياه البحر منخفضا، وهو ما يحدث في غالب الأحيان بعد هبوب رياح الجنوب والرياح الآتية من الشرق، نرى أن عمق هذا الميناء يزدحم بالأعمدة الضخمة وحطام الجدران، وأشار في نفس السياق إلى الحماية الكبيرة التي كان يقدمها الميناء للسفن، وكانت المباني المتواجدة حوله تتمتع بدورها بحماية كلية من الرياح التي تهب من مختلف الجهات[33].

ورغم أن كل الذين درسوا ميناء إيلول- قيصرية قد أجمعوا على أنّ هذا الجزء الشرقي يُعد الميناء التجاري

إلا أنّ Diolé خالفهم، وقال بأنّه كان ميناء للصيادين. وبالمقابل حدّد الميناء التجاري بالقرب من التجمع السكاني أي على الشاطئ وتحديدا بالقرب من الخزانات عند مصب واد صغير في شاطئ رأس المرابطين وهو المكان –حسب رأيه- الذي كانت تصطف فيه السفن التجارية للفينيقيين والإغريق والبونيقيين[34].

الميناء العسكري : (أنظر الشكل رقم : 1)

يقع بين جزيرة جوانفيل والشاطئ، يتمتع بحماية جيدة من الرياح التي تهب من مختلف الجهات بفضل تلك الجزيرة، وهو يتطابق مع الميناء الحالي.

وصفه كل من Cagnat[35] وGsell[36] بأنه الميناء العسكري، وكان محميا من ناحية الشمال بجزيرة جوانفيل، ومن الغرب بواسطة كاسر jetée يربط الجزيرة باليابسة، ولم يبق اليوم من البناءات القديمة أي أثر، لكن Carayon يرى عدم الجزم بأنه ميناءا عسكريا لعدم العثور به على شيء ذو خاصية عسكرية[37].

يرجع البعض تأسيسه إلى الملك يوبا الثاني لكن في الحقيقة أن وجوده سابق للممالك النوميدية، لأن الرحالة سيلاكس في القرن الرابع ق.م قال بأنه ميناء جزيرة، ولأنه أكتشف في الجزيرة ذاتها مخلفات تعود إلى الفينيقيين المعروفين بتهيئتهم للموانئ. وعلية فإن مافعله الملك يوبا هو إعادة تهيئته وربما توسيعه.

قدر Cagnat عمقه بين 2,5 م و3,2 م، وبإمكانه إستقبال 13 سفينة ذات صفين من المجاديف يصل طول كل واحدة منها 52 م وعرضها أكثر من 6 م[38].

ظلت آثاره التي ذكرها الرحالة شاو والمتمثلة في سور ذو أروقة، دكاكين، ورشات لتصليح السفن، ودار الأسلحة بادية للعيان، وقد شاهدها كل من Ravoisié وGiret في الأربعينيات من القرن التاسع عشر[39].

أكتشف عند مدخله سنة 1847 هيكلان لسفينتين رومانيتين أثناء عمليات تجريف الميناء[40]، التي كانت نتيجتها المسح الكلي له وتغيير شكله بصورة نهائية ومُحي كل أثر للميناء القديم لدرجة أن Diolé يصفه بعقدة ميناء شرشال[41].

موانئ أخرى إفتراضية

نفى Cagnat وجود ميناء يقع إلى الغرب من الميناء العسكري، رغم أنه ذكر رأي متداول بين سكان المنطقة بوجوده، والسبب في رأيه أن المنطقة معرضة لرياح الغرب وأمواج البحر[42]. في حين عارضه Diolé وقال بأن تلك المنطقة تزخر بآثار مباني وخزانات لا زالت باقية في مكانها تشير إلى مراكب كانت تستطيع المجيئ والرسو عند الرصيف الذي أنشأه الرومان بين الجزيرة والشاطئ. ورغم أن هذا الميناء معرض لرياح الغرب لكن بقايا الكاسر المهدم كانت تضمن له حماية كافية. ويتصل هذا الميناء الإفتراضي بالميناء العسكري عبر ممر والدليل على ذلك أن المراكب في العهد العثماني كانت تدخل وتخرج من شرشال من جهتي الغرب والشرق، والدليل الآخر هو أن مخططات الميناء التي أنجزت أثناء الفترة الإستعمارية تثبت أن الحوض الذي بني فيه الميناء الحالي كان له ممر غربي. وحدد Diolé ميناء إفتراضي آخر يتواجد إلى الشمال أي أمام جزيرة جوانفيل، أطلق عليه ميناء متقدم، لأنه عثر على بقايا إسمنت تحت الماء إعتقد بأنها بقايا لكاسر أمواج يحمي الميناء من جهة البحر[43].

المنـــارة

قام J.Lassus بالتنقيب في جزيرة جوانفيل وتم الكشف عن منارة ميناء إيول- قيصرية. وهي عبارة عن مبنى ثماني الأَضلاع، قدر سمك الجدران بحوالي 1,62 م، وبلغ أعلى جزء من بقايا المنارة 3 م. لم يبق منها إلا أساساتها، (أنظر التخطيط الذي يرمز له بحرف : B في الشكل رقم : 2) والتي بنيت حسب التقليد الهللنستي لذلك شبهها J.Lassus بمنارة الأسكندرية. وكانت قد بنيت بجوار هيكل يبدو أنه كان سابقا لوجودها والمشار إليه بالحرف : A، وهناك بقايا قلعة تعود إلى العصر التركي أقيمت على جزء من أنقاض المنارة، وهي التي يدل عليها الحرف : C [44].

شكل رقم 2 : تخطيط يمثل بقايا منارة ميناء إيول- قيصرية

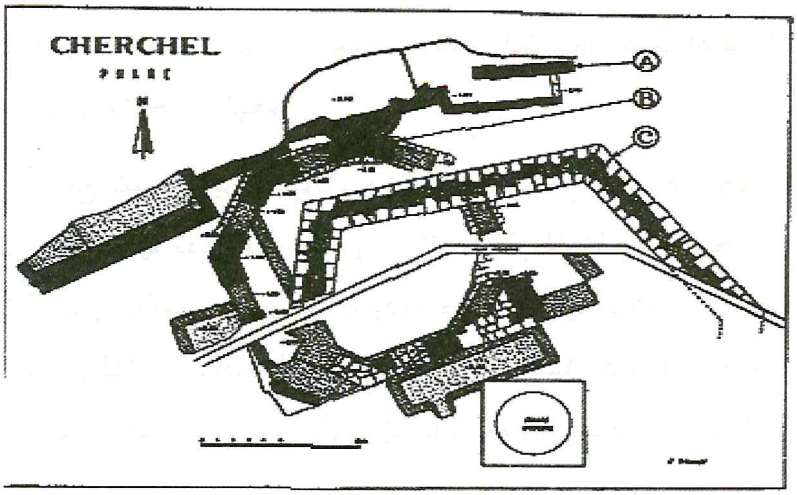

المرجع : J. Lassus, les découvertes récentes, p. 221.

هناك شيء آخر مهم في إكتشافات J.Lassus وهو الهيكل الذي عثر على جزء من أساساته وأرجع تاريخ إنشائه إلى عصر الملك يوبا الثاني وسابق لوجود المنارة، وقال أنه كان يبدو من البحر مهيبا بشكله الضخم[45]، ورغم ذلك أجد أن يوبا رأى أنه لم يؤدي الدور المرجو منه فأقدم على إنشاء المنارة التي كانت منطقيا معلما مهما بشكلها وإرتفاعها وهندستها والدقة في بنائها التي لفتت إنتباه J.Lassus نفسه، والتي لازالت تطرح تساؤلات تتطلب الإجابة عليها القيام بتنقيبات.

دور الميناء التجاري

يبرز هذا الدور من خلال أهميته في التجارة الخارجية، أي العلاقات التجارية التي عقدها مع مجموعة من الموانئ المشهورة آنذاك والمطلة على شواطئ حوض البحر المتوسط. فقد إهتم الملك يوبا الثاني بالتجارة البحرية

مع شبه جزيرة إيبيريا، فكانت البضائع الآتية والمتجهة من وإلى موريطانيا تمر عبر قادس، مالقا، وقرطاجنة. أما التجارة مع بلاد الغال فتشهد عليها خاصة وفرة كسور مزهريات حمراء اللون مغطاة بطلاء شفاف أو مزينة بصور عليها علامات مراكز صناعتها، كما عثر على نقود في غالة تعود إلى عصري يوبا الثاني وإبنه بطليموس[46]، بالإضافة إلى الصلات التجارية التي كان يعقدها هذا الميناء مع موانئ إيطاليا خاصة أوستي.

دور الميناء الدفاعي

يتجلى دوره الدفاعي من خلال مسائل عدة ألخصها في النقاط التالية :

- بداية إتخذه الفينيقيون أو على الأقل جزء منه وتحديدا جزيرة جوانفيل كمبخبأ لهم للإحتماء من الأخطار التي قد يتعرضون إليها من قبل الأهالي[47].
- يتجلى دوره الدفاعي أيضا من خلال وجود هياكل ومباني دفاعية منها مثلا المنارة التي لم يقتصر دورها على إرشاد الملاحين بل كان لها دور المراقب.
- كان قاعدة عسكرية لأسطول الملك يوبا الثاني إذ يرى الكثير بأن الإمبراطور الروماني أوغسطس سمح ليوبا بذلك لأن وجوده ضروري خاصة لترويج التجارة.
- جعله الرومان كمقر لإيواء إحدى فرق أسطولهم الحربي[48]، والتي بلغ عدد وحداتها كحد أقصى يستطيع الميناء إحتوائه حسب المؤرخCagnat 13 سفينة ذات الصفين من المجاديف، وهي عبارة عن سفن سريعة وخفيفة يصل طولها 52 م وعرضها أكثر من 6م[49]. وهي الفرقة التي أرسلت إلى قيصرية بهدف قمع الإنتفاضة التي قامت على إثر مقتل بطليموس والتي تحولت فيما بعد لتصبح نواة لأسطول مقاطعة موريطانيا القيصرية. أما عن دورها فهو متعدد المهام : مقاتلة القراصنة والقيام بدور شرطة الشواطئ وحماية القوافل العسكرية التي ترسل من إيطاليا، وأهميتها تتجلى من

خلال وضعها تحت قيادة حاكم مقاطعة موريطانيا القيصرية الذي كان مقره بقيصرية[50].

دور الميناء في الصيد :

من النشاطات الأساسية التي كانت لهذا الميناء صيد الأسماك وتجفيفها، حيث أكتشفت أحواض خاصة بذلك لازالت آثارها مغمورة تحت الماء، وهي عبارة عن أحواض لتربية الأسماك وبالقرب منها هناك أحواض تتطابق مع منشآت تمليح الأسماك، لأن شاطئ هذه المنطقة يتمتع بوفرة الأسماك التي فاقت الإستهلاك المحلي. وتلك الآثار تم الكشف عنها من قبل كل من : R.A York وDP Davidson[51].

خاتمة :

يتضح من خلال هذه الدراسة المتواضعة لميناء إيول – قيصرية بعض الملاحظات والتوصيات منها :

- إلى غاية العصر الوسيط لاتزال بقايا الميناء القديم لإيول – قيصرية بادية للعيان.
- لم تذكر المصادر القديمة المنارة، ولم تعط لميناء إيول – قيصرية أهمية كبيرة مقارنة بما ذكرته عن بعض الموانئ

الأخرى في البحر المتوسط، وهذا يدخل في إطار عدم إهتمام هذه المصادر بالمنطقة ككل إلا حينما يتعلق الأمر

بصلتها بأحداث البحر المتوسط. وبالتالي فإن هذه المصادر مجحفة في إيراد معلومات وافية عن ميناء كان له حضور في العصر القديم.

- إن عدم ورود معلومات مفصلة عن الميناء في المصادر القديمة لا يفسر بقلة أهميته آنذاك أو أن دوره لا يذكر، لأن التنقيبات الأثرية سواء على اليابسة أو تحت المياه – رغم قلتها - أثبتت تحوله من مرفأ طبيعي إلى ميناء إصطناعي، وأصبح من أشهر موانئ ذلك العصر، بهندسته التي لا تقل عن مواصفات أشهر موانئ العصر القديم خاصة الرومانية منها.
- كان لميناء إيول – قيصرية عدة وظائف.
- برز دور الميناء الحضاري السلمي بصورة أكبر قبل العصر الروماني، وطغى دوره الحربي على الجانب السلمي إبتداء من ذلك العصر.
- جعل هذا الميناء إيول – قيصرية إحدى المدن البحرية الهامة في العصر القديم. فكما قال شاو كان كبيرا جدا ورحبا ومزدحما بالمباني وكانت له فوائد كثيرة، تشهد عليها البقايا المبعثرة في قاع البحر.
- تدخل يد الإنسان في تهيئته واضحة جدا من خلال هياكله التي حمته من أمواج البحر والرياح، فهو عبارة عن مركّب من الأحواض له مداخل مختلفة حسب إتجاه هبوب الرياح.

- إزدهار المدينة متأت من الدور الرئيس الذي لعبه في المبادلات التجارية مع مختلف المناطق.
- وجود بقايا متناثرة في أماكن أخرى من الميناء دليل على أن إيول-قيصرية لم يكن لها ميناء واحد بل عدد من الموانئ كل حسب إختصاصه، فقد وجب رؤيتها من تحت الماء لفهم قيمتها.
- ضرورة المحافظة على ما تبقى من آثاره وإعادة ترميمها.
- تعد هذه الدراسة بسيطة وغير كافية لهذا المعلم العظيم بهياكله، بمكانته الإقتصادية والدفاعية، بمركزه السياسي والحضاري، وعليه فإنه لا زال بحاجة لدراسة ميدانية معمقة وشاملة.

الهوامش :

(1) **Stéphane Gsell**, Cherchel. Antique Iol- Caesarée, Alger : Imprimerie Officielle, Sd. p.9.
(2) **Stéphane Gsell**, Promenades archéologiques aux environs d'Alger (Cherchel,Tipasa, le Tombeau de la Chrètienne), Paris : Société d'édition les Belles Lettres, 1926, p.8.
(3) **Nicolas Carayon**, Les ports phéniciens et puniques. Géomorphologie et infrastructures, Thèse de Doctorat , Université Strasbourg II, 2008,p.188.
(4) **Stéphane Gsell**, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Paris : Librairie Hachette, 1928, T.8, p.224
(5) **Pline l'Ancien** , Histoire naturelle , traduit par Hubert Zehnacker, Paris : Gallimar ,1999. V, 20.
(6) **Strabon,** Géographie, Traduit par Amedée Tardieu, Paris : Librairie Hachette, 1880, XVII, 3,12.
(7) S.Gsell, op-cit, p.230.
(8) **G.Camps et P.R.Giot,** " Uu poignard chalcolithique au cap Chenoua", Libyca, Anthropologie - Préhistoire,T8, 1960.
(9) **Philippe Leveau**, Caesaréa de Maurétanie, une ville romaine et ses campagne, Roma : Ecole Française de Rome, 1984, p.9-10.
(10) **Philippe Diolé**, Promenades d'archéologie sous- marine, Paris : Editions Albin Michel, 1952,p.163.
(11) Nicolas Carayon, op- cit, p.188.
(12) Ph.Leveau, op-cit, p.12-13.
(13) S.Gsell, Cherchel…, op- cit, p.12.
(14) Ph. Leveau, op- cit, p.11.
(15) Encyclopédie Bèrbère, France : Aix-en –Province, 1992, T.11, p.1698.
(16) Ibid, p.1698.
(17) Ibid.
(18) **E.F.Gautier**, Génseric, roi des Vandales, Paris : Payot, 1932, p.173.
(19) Ibid, p.275-276.
(20) **إبن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)**، صورة الأرض، بيروت : منشورات مكتبة دار الحياة، دون تاريخ. ص، 78.
(21) **Dr. Shaw**,Voyages dans la Régence d'Alger ou déscription geographique, physique, philologique, etc…, traduction de J.Mac Carthy, Paris, 1830. p. 269- 270.
(22) **René Cagnat**, l'Armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, Paris : Imprimerie nationale, 1913, p.280-281.
(23) S.Gsell, Promenades archéologiques …, op- cit, p. 80.
(24) R. Cagnat, op- cit, p.281.
(25) Ph. Diolé, op- cit, p.158.
(26) R. Cagnat, op- cit, p. 281.
(27) Ph. Leveau, op- cit, p.48.
(28) R. Cagnat, op- cit, p.281-282.
(29) Ph. Diolé, op- cit, p.157.
(30) Nicolas Carayon, op- cit, p.654.

(31) S.Gsell, Histoire ancienne…,op-cit, p231.
(32) Ph. Diolé, op- cit, p.157.
(33) Dr. Shaw, op- cit, p.270.
(34) Ph. Diolé, op- cit, p.158.
(35) R. Cagnat, op- cit, p. 281.
(36) S.Gsell, Promenades archéologiques …, op- cit, p.80.
(37) Nicolas Carayon, op- cit, p.500.
(38) R.Cagnat, op- cit, p. 282- 283.
(39) Ibid, p. 282.
(40) S.Gsell, op- cit, p.80.
(41) Ph. Diolé, op- cit, p.159.
(42) Cagnat, op- cit, p. 280.
(43) Ph. Diolé, op- cit, p.157, 160- 162.
(44) **Jean Lassus**, " Les découvertes recentes de Cherchel ", Comptes-Rendus des Séances de l'Academie des Inscriptions et Belles Lettres, 1959, N° 2, V.103, p.222.
(45) Ibid, p. 219.
(46) S.Gsell, Histoire ancienne…,op-cit, p.231- 232.
(47) S.Gsell, Promenades archéologiques …, op- cit, p. 8.
(48) Ph. Leveau, op- cit, p.47.
(49) Cagnat, op- cit, p.283- 284.
(50) Ph. Leveau, op- cit, p.47- 48.
(51) Ibid , p.49- 50.